شخصية احمد شوقي

شاهد عصره ، ومعلّم جيله

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

كُتب هذا البحث مقدّمة لدرس الاديب ادوار حنين في « شوقي على المسرح » . ولمّا كان قرّاء « المشرق » قد اطلعوا على ذاك الدرس في مجلد السنة الفائتة ، كان من حقهم كذلك ان يطلعوا على المقدمة :

من الشعراء مَن لا يتجاوزون تصوير انفسهم ، يدرسونها بدقة واخلاص ويصفونها بصراحة وطبية ، فلا تخالجهم عاطفة ، ولا يدفعهم امل ، ولا يقعد بهم يأس ، الا رأينا آثر ذلك على شفاههم المختلجة ، وفي نبراتهم المضطربة . وكأنهم اكتفوا ، من العالم كله ، بانفسهم الحساسة ينبوعاً فوّارًا متجدّد الدفقات ، فمثّلوها اصدق تمثيل .

ومنهم مَن اصطفتهم الحياة لرسالة افسح مجالًا ، وانبل غاية ، فرفعتهم من تمثيل انفسهم الفردية في حالات خاصّة ، الى تمثيل النفس البشرية وقد احاطت بها مشاكل الحياة المتعدّدة . واذا بفواصل الزمان والمكان تنهار امام عبقريّتهم ، واذا بهم شعراء الانسانية الشاملة .

ومنهم مَن خصهم التاريخ بتمثيل عصورهم فشاهدوا ما يبدو عليها من قلق وطمأنينة ، واحسّوا ما فيها من نزعات وسكنات ، فشاركوا اخوانهم باللذات والآلام ، وجمعوا في شخصيّاتهم بما تفرّق في الجمهور من عواطف غامضة تبدو تارة في المسرّات الصاخبة ، وطورًا في الفواجع البكماء . واذا هم شواهد عصور ، ومعالم اجيال .

من هؤلاء الشعراء كان احمد شوقي . ومن هذه العصور القلقة المضطربة كان عصره في مصر . وكأنّ الحياة قرنت بين اضطراب عناصر الشاعر واضطراب مصره ، فانبتت لنا تلك الزهرة الغريبة بما جمعت من فواقع الاصباغ وخوافت

الالوان ، العجيبة بما اثارت من نوافح الرائحات ونواعم الطيوب ، حتى انتجت تلك الثمرة اللذيذة بما خالط نضجها من عفوصة الفجاجة.

ظهر شوقي مضطرب العناصر الدموية ، مختلج النزعات الوراثيـة . فهو كردي عربي من ناحية جدّه لابيه ، تركي من ناحية جدّه لوالـدته ، يوناني من ناحية جدته . « اصول اربعة في فرع مجتمعة » ، كما يقول . بيد انه لم يكن لهذا الفرع من ضابط كافٍ يوازن بين تلك الاصول فيوحّد نزعاتها ، ويسوقها جميعاً في ثقافة واحدة . فظلّت هائمةً تضرب على غير هدى ، تارةً تتفرق ، كلٌّ في مذهبه ، فتتنازع شخصية الشاعر الحائرة بين تلك الرغبات ؛ وطوراً تجتمع معتلجةً في تلك الشخصية فتثيرهـا حتى الفوضى . واذا وصف اليونان ، الى حكمة العرب ، الى حسّ الترك ، الى غرائب الاكراد ، في بوتقة جائشة ، تتوائب وتتماسّ ، ولكنها لا تمتزج في سبيكة واحدة.

ويشبّ الشاعر في هذه الفوضى العنصرية ، فـلا يلبث ان يتأثر بفوضى اخرى ثقافية . وقد كان من الصعب ان تكون الثقافة غير فوضى في ذاك العصر . يدرس الحقوق ، ويدرس الترجمة ، ويقرأ كل ما تصل اليه يده من كتب الادب وكتب الشعر خاصةً ؛ يقرأ البهاء زهير المائع ، ويقرأ ابن مطروح وابن النبيه السائلين ، ويقرأ ابا نوّاس الخليع ، ويقرأ البحتري المزخرف ، ويقرأ المتنبي الشامخ ، ويقرأ المعرّي المفكر ، وفي كل منهم يرى ما يعجبه ويرضي ناحية من شخصيته المركبة.

وينتقل به الحظّ الى مونپليه يتابع درس الحقوق ؛ فـالى باريس ، عاصمة الفنّ والجمال ، في عصر كان من اوفر العصور عائدةً على الفنّ والجمال . يصل شوقي باريس في حقبة ازدهرت فيها المذاهب الشعرية ، وكثر الشعراء . فلكل فكرة شاعر ، ولكل شهوة شاعر ، ولكل مظهر من مظاهر الحياة شاعر ، بل لكل وهم شاعر . فهناك البرناسيّون والرمزيّون ؛ وعبـدة الفنّ للفنّ ؛ وهناك المغالون في تصوير الطبيعة ووصف الواقع ؛ وهناك مَن تأخر من المدرسيين ومن منازعيهم ارباب الرومانتيسم.

هناك كاتول مندس (Catulle Mendès) ، وديزيـار (des Essarts) ،

ودي ريكار (de Ricard) واندادهم يؤسسون البرناس وينعشونه بآثارهم الانيقة ، وهناك هنري كازاليس (Cazalis) يثير في شعره الرقيق نفحات شرقية بعيدة ؛ هناك فرنسوا كوپيه (Coppée) شاعر العاطفة الناعمة ، وسولي پريدوم (Sully Prudhomme) شاعر الفكرة الحائرة المتزنة . هناك پول ديروليد (Déroulède) يهيج العاطفة الوطنية في قلوب الشباب فيتحمسون حتى الموس . وهناك ڤرلين (Verlaine) يهيم بادوائه الجدية والخلقية من مستشفى بروسيه الى الحي اللاتيني ، فالى حلقات الادب ، فالى المواخير والحانات ، فالى المستشفى راجعاً ، منشداً آلامه وآماله ، تاركاً على اشراك الحياة قطعاً دامية من تلك النفس المتنازعة ابداً بين لذعة الشهوات البهيمية ولذة الفضائل السامية . وفوق هذه الجماعات المضطربة الصاخبة كان لا يزال صوت ڤيكتور هوغو يدوي صداه الضخم حتى في حنايا المحفل الادبي فيخضع اعضاؤه لوصية الشيخ الراحل ، و«پيتون» بينهم لوكونت دليل (Leconte de Lisle) ؛ واذا «بشاعر التشاؤم» يصبح عضو المحفل الادبي على رغم اعدائه العديدين ، ويصبح «اميراً للشعراء» كما سيصبح شاعرنا بعد حين .

كلها مظاهر لم تكن بعيدة عن شوقي الطالب في باريس ، لو شاء ان يرهف اذنيه لشعر الاحياء ؛ بل كلها مناخ كان من الخليق به ان ينحى بعضها ، لو شاء ان يفتح عينيه فيرى فيها شيئاً لما في نفسه . على انه مال عن الادباء الى كتب الادب ، وعن الشعراء الاحياء الى المنتخبات من شعر الموتى . فأخذ بروعة هوغو وفخامته الصاخبة ؛ واعجبته قصص الحيوانات في امثال لافونتين ، وتأثر برقة دي موسيه وصراحته المرسلة ، وجرى مع سلاسة لامرتين وغزله المائع ، ولا نراه وصل الى لذعة بودلير وحرقته . كما انه أخذ ، في ما سبق ، بروعة المتنبي ، وأعجب بزخرف البحتري ، وتأثر برقة البهاء زهير ، دون ان يصل الى عمق المعري او لذعة ابن الرومي . وكما انه قلد قدماء العرب ، بين النجاح والفشل ، جرب تقليد من عرفهم من شعراء الفرنج ، فنجح وفشل كذلك .

وهكذا فان الثقافة الفرنسوية لم تقوم ما تحتناه من اعوجاج في ثقافته

العربية ، ولم تُنظم تلك الفرض العنصرية .

ولم يكن حظ مصر ، اذ هبطها شوقي ، باوفر من حظ الثقافة الفرنسوية في تنظيم تلك الفرض ، ومصر تتخبط في فرض سياسية شبيهة بهـا . كانت مصر حائرة مضطربة بين خلافة « المتبوع الاعظم » ، وحماية ملـك الانكليز وامبراطور الهند ، وسلطة الخديوي المباشرة ، ونزعات ارباب الوطنية من رجال السيف والقلم .

شوقي الشاعر الشاب المتدفق شعوراً ، المضطرم خيالاً ، يعود من باريس الى مصر في اشدّ ازمنة مصر حرجاً ، واجدرها باثارة الشعر . فـاذا يصنع ؟ وكيف يتجه ؟ واي مذهب يتخذ ؟ الثورة العرابية لم تنطفئ جذوتهـا بعد ، وكبار الوطنيين مشتتون في المنافي ، والانكليز شديدو الحرص دائم الحذر ، والخديوي يعاني المصاعب ويصطدم بالعقبـات ، وشوقي ... يعيّن رئيساً للقسم الافرنجي بحية الخديوي عباس حلمي . هوذا الشاب النازع بالطبع والثقافة الى الفرض والحرية والصراحة يُقيّد بواجبات الادارة الرسمية وما تفرضه من تحفّظ واحتياط وملاينة ومداراة . هوذا المصري الراجع من فرنسة ، سنة ١٨٩١ ، حالماً بكل ما يجيش في البلدين من ثورات وطنية ، يُصبح من دعـاة النظام المستقرّ ومن مبرّري مآتي السلطة المشروعة . هوذا الشاعر ينقلب رجل سياسة ، يستقبل بلطف ويودّع ببشاشة ، يدوّن اعمـال سموّ الامير ، ويشكر السلطة الحامية ، ويهنئ « المتبوع الاعظم » خليفة المسلمين ، بالاعياد والمواسم . واذا بقي له شيء من شاعرية ، بعد هذا ، فـلا بأس بان يلهو ببعض الاستهلالات الغزلية ، او ان يعبث ببعض الفلتات الخمرية ؛ واذا سمت شاعريته فالى مدح الانبياء والاولياء على طريقة الخطاطبي الصوفيين ، او الى نظم تاريخ العالم يقلّد به الملاحم الاصطناعية ، او الى معارضة بردة البوصيري ... واي حاجة به الى الكدّ وراء المستصعبات ، وهو

شاعر « العزيز » ، وما بالقليـل ذا اللقبُ !

عشرون سنة تنقضي على الموظف الرسمي يستفيد فيها شوقي مالاً كثيراً ، وكياسة ادارية ؛ ويستفيد كذلك اكراماً شاملاً واعجاباً عاماً ؛ لانه كما عرف

ان يرضي روّاد القصر بتلطفه السياسي ، عرف كذلك ان يرضي طبقات الناس في مصر ، وفي غير مصر ، بمرونته الشعرية . يرضي الوطنيين ويرضي الانكليز ، يرضي المصريين ويرضي العثمانيين ، يرضي المسلمين ويرضي النصارى . اما هل يرضي الشعر الحقيقي ؟ اما هل يرضي شخصيته الشاعرة ؟ فـزال ما نخال شوقي يجيب عنه بالاطمئنان ، لولا ذاك الكسل العقلي الذي مُني به اثناء تلك الحياة الطويلة المنيئة فحال بينه وبين الجدّ في سبيل المثل الاعلى .

من الحق ان شوقي كان يطالع بكثرة ، ويطالع فنوناً مختلفة . الا ان مطالعته هذه لا تخرج عن مظاهر الكسل العقلي ، بل هي شرّ مظاهره ، لانها توهم صاحبها بالعمل ، ولا عمل الا اضاعة الوقت في تصفح سطحي بعيد عن الدرس والاجتهاد .

من الحقّ ان شوقي كان يحبّ تنقيح شعره ، وكانت آماله تنبسط الى ان تنشره الصحف اوسع نشر ، فيقرأه الزملاء ، ويتدارسه الادباء . ولكن على شرط ألاّ يحوجه ذاك التنقيح الى ازعاج نفسه ، وألاّ يعترضه الزملاء بالمنافسة ، ولا الادباء بالنقد . فهو لا يقوى على مجاراة الاحياء ، لا عن شعور بالعجز – لان من يباري ابا تمام والمتنبي وهوغو لا يخشى مجاراة حافظ واحمد نسيم وامثالهما – بل عن هرب من الكدّ والتعب . وهو لا يطيق النقد ، لان النقد يوضح له ذاك الشعور النفسي الغامض بالنقص ، وكانه يوقظه من استكانة الى الغرور لا يحبّ ان يقلقها عليه احد .

من الحق انه كان يحب الاطلاع على الجديد من الافكار ، وعلى الحديث من الاكتشافات والاختراعات . الا انه كان يفعل ذلك ليموه على نفسه فيرضيها ، او يظن انه يرضيها ، فلا تنكر عليه كسله ، وهو لا يزال شاعراً بتهمة ذاك الكسل ، ثم ليرضي السطحيين من الناس ، اذ يقرأون في شعره تلك التلميحات العامة الى التاريخ والفن والعلم والفلسفة ، فيعجبون ، ولا يدرون ان الشاعر يتكل في نيل هذا الاعجاب ، على جهلهم هم ، لا على علمه هو .

من الحق ان شوقي ظلّ على مظاهر عدة من تلك الفوضى التي تحققناها في تقدّم . ولكنها ، بعد ان قيدها بالنظام الخارجي في الحياة الرسمية وفي ١٠

الشعر الرسمي ، لجأت الى الحياة الداخلية ، الى الاخلاق ، والى ما ينظم من تلك المقاطع « البيتية » ، ان صحّ التمييز ، التي يقصر عنها نظر الامير ، ولا ينالها حكم الجمهور . واذا بشوقي يتفلت احياناً من واجبات البلاط ، فتراه في المطاعم الحقيرة ، مشتهياً المآكل الخشنة ؛ وتراه في الطرق المقفرة يهيم متصعلكاً متشرّداً حتى يطرق ابواب اصدقائه في ساعات متأخرة من الليل ؛ وتراه في مجالس لا تنفذ اليها عين الرقيب ، لاهياً عابثاً . تلك منافذ للفوضى ، وقد قُيّدت رسمياً في حياة القصر . الا ان الشاعر تأثر ، حتى في هذه الفلتات ، بمظاهر البلاط الفرّيسية ، فوجب عليه ان يخفّف من صراحته وطبيعته ، فيتظاهر دائماً بالرصانة ، ويمدح التديّن والتقوى ، ويكثر من الاشادة بذكر الاخلاق الصالحة . . .

هذا ما جنته تلك الحياة الرسمية السهلة على عبقريّة ، لو نضجت حُرّةً ، لتاخرنا بها الشعر العالمي .

***

وتدور الايام دورتها ، واذا بالامير مُنزل عن عرشه ، واذا بشاعر الامير منفيّ في الاندلس ، يبكي على مدنية بكى على اختها بالامس ، ويجول في آثارها الفخمة ، فيحسّ عصورها الذهبية ، ويحييها بخياله الخصب ، وقد زاده سنّ الكهولة توازناً ونضجاً ، ونفحته ريح المنفى حريّةً كانت تعوزه في بلاط اميره . فغدا اقرب الى الخلافة المروانية منه الى خلافة آل عثمان ، وادنى الى العرب منه الى الترك ؛ حتى اذا عاد الى الكنانة ، وقد تحوّرت خريطة الشرق الادنى ، فتمخّضت الامبراطورية العثمانية عن ممالك وامارات وجمهوريات جديدة ، انقشعت عن ناظريه غشاوة الذهب الخديوي ، فاتسع افق تفكيره ، وانبسط جناح خياله ، وانتشرت اعصابه تحسّ باحساس تلك الشعوب المستيقظة الى النور ، الناهضة الى الحرية والاستقلال نهضة الفتى النشيط بعد السُبات الطويل . واذا باحمد شوقي يتحوّل من شاعر الامير الى شاعر الشعب ، من شاعر مصر الى شاعر البلاد العربية ، من شاعر الخليفة العثماني الى شاعر العالم الاسلامي ، بل الى شاعر الشرق على اختلاف ميوله ونزعاته واديانه .

ولكن تلك رسالة تتطلب اقداماً نشيطاً وكداً متواصلا ؛ وشوقي ، وقد جاز الخمسين من حياة قضى نصفها في الراحة والرفاهية ، اصبح من الصعب عليه ان يلاقي الحوادث المقبلة ؛ فانقلب يركض وراء الزمن الفائت. يا لآثار الايام ! ويا لانتقام الطبيعة ! عندما كانت المواهب متوافرة لهذه العبقرية الفذة اخذ الشاعر يهملها ، بل يقتلها بالمدائح السخيفة والتهاني المبتذلة ، حتى اذا جاء وقت الانتاج المثمر ، حتى اذا نادى العصر شاعره ، طلب الشاعر هذه المواهب فلم يجدها ؛ انما وجد آثارها الناحلة ورسومها الشاخصة وقد مرّ عليها الزمان ، واخلقها الاهمال . عندما كانت طرق الابتكار ممهدة امامه كان يتنكب عنها الى مجازات التقليد السهل فيجري فيها عن كسل وتراخ ، حتى اذا شاقه الرجوع الى تلك المسالك الصعبة راغباً في الابتكار والتجديد ، خانته القوى ، فلم يجد الا التقليد يرقع بـه ثغور نبوغه . يتوكأ على بعض شعراء الافرنج حيناً ، ويلجأ احياناً الى العرب الاقدمين : يعارض ابا تمام ، ويقلد المتنبي ، ويجري على اسلوب البحتري ، ويحاكي شعراء الغزل . . .

وما كان ليرأب بهذه الرمم صدوع شاعريته ، لولا ان الشرق العربي اعتاد الاعجاب ببعض الكلمات « الطقسية » كما اعتادت اذنه تذوق الموسيقى التقليدية الموحدة النغم . ولا مشاحة في ان شوقي كان من ارباب هذه الموسيقى الماهرين ، ومن سادة المتلاعبين بتلك الالفاظ السحرية . له من هلهلته الشعرية ما يولد المطالع الفخمة الرائعة تفسح للسامعين آفاقاً من الشعر الصافي لا يحدّها الا عجزهم عن ارتيادها ؛ وله من عاطفته الشاملة ما ينيله التأثر السريع والشعور البصير لشعور الجمهور ، فيحس لشعب كامل بل لشعوب . ويهديه لطف حسه الى اختيار الفاظ جلاها الاستعمال مدة قرون ، ومسحها التاريخ بقدرة الايحاء ، وسكب عليها الدين صبغة التقديس ، فغدت تختزن بين حروفها قوة على اثارة التذكارات عجيبة ، وتجمع في نبراتها خلاصة امجاد الشرق الاسلامي على تتابع الاجيال ؛ وكأنها تلك الخزانات الكهربائية المفعمة لا ينالها الخط الموصل حتى تتراحم شراراتها ، وتتدافع تياراتها ، ثائرةً صاخبةً . هكذا كان شوقي يرقب جوّ الجمهور الاسلامي الشرقي ، المضطرب حزناً على اثر الفشل ، او

المقترح طرباً لبعض الانتصارات ، او المنتفض حماسةً في متابعة آماله المتعدّدة ، فيطلق فيه تلك الالفاظ السحرية ، وكل منها تلخص تاريخاً برأسه ، بل عقيدة كاملة ، من امثال «الله اكبر!» — «يا اخت اندلس» — وما الى ذلك من ذكر محمد وموسى وابن مريم ، والاسلام والاذان ، وجلق ومروان ، والاهرام ، والفراعنة . . . وغيره كثير ، يطلق تلك الالفاظ في ذاك الجوّ المفعم ، فتتارج ، وتتلاقى موجاتها ، وتهبط دوائر مستطيلة ، وكأنها رقمت على السامعين بكل ما ترمي اليه من تاريخ لا يريده الخدّة الا مجيداً ، ومن ذكريات لا يرونها الا موافقة للحالة الحاضرة ؛ واذا بالشاعر في كل قلب ، واذا بشعره على كل لسان .

هو شوقي يقول ما يفكر به الجمهور ، ويعبّر بصراحة وثقة عما يشعر به الشعب بغموض واضطراب . فهو شاعر العصر بلا خلاف ، بل هو يلخص في شخصيته الشرق الاسلامي بكل ما فيه من انبساط وانكماش ، من امل ويأس ، من سعي مثمر وتواكل مؤلم ، «يغني في فرحه ، ويعزّي في احزانه» . . . ثم يتجاوز تلك المظاهر السياسية العامة الى رغبات الشعب الحيوية وحرائقه اليومية — واكثرها بعيد عن الشعر — فيناصر المشاريع الاقتصادية ، ويُعلن عن المصارف الوطنية ، ويهتم بشؤون العمال ، ويؤرّخ الحوادث المحلية ايّاً كانت . يبتهج مع المبتهجين ، ويبكي مع الباكين . يرى الناس مندفعين الى الغناء ، فيظهر رغبته في التلحين ، فيغني ، ويجيد . ويرى الفنّ التمثيلي على تقدّم ، في مصر ، والاجواق تتكاثر وتزدهر ، فيجاري الذوق العصري كما ينظم في التمثيل ، غيرَ هيّاب . وان يكن شوقي لم ينجح في التمثيل نجاحه في الغناء ، فلانه كان ذا ميل فطري الى الموسيقى ، ورغبة في نظم الاغاني ، منذ ان عرف عبده الحمولي في بلاط الخديوي اسماعيل . ولم نعرف عنه انه مال الى التمثيل ، او اضطلع به ، الا ما ذُكر في أخريات ايامه من انه كان يكثر الاختلاف الى دور السينما . والسينما والتمثيل ظاهرتان منفصلتان للفنّ ما اتحدتا الا فدتا جميعاً .

هكذا كان شوقي ، في القسم الاخير من حياته ، مسايراً الجمهور في

عواطفه ، دائم الاتصال به ، مطلعاً على ما يصيبه من احداث يستغلها في شعره الرائع . ولو كان لبقريته ، اذ ذاك ، قوة الابتكار لما اكتفت « بالثناء في الفرح ، والعزاء في الحزن » بل لسبقت الاحداث فهيأتها على ما تريد ؛ ولما رضيت بالسير في القافلة البشرية بل لتقدمتها هادية الى محجة الحياة المثلى . ولكن الابداع صعب على تلك الشخصية في تلك الاحوال . فكان من نصيب الشاعر الكبير ، وقد عجز عن خلق الحديث ، ان يحيي القديم ، ويحييه دائماً ؛ كما كان من حظه ، وقد قصر عن هدي قومه الى فجر جديد من الشعر العربي ، ان يظل شاهد عصره ، ومعالم جيله .

***

هذه لمحات مقتضبة متقطعة في شخصية شوقي ، وفي ما كان من تفاعل عناصرها الدموية ، ومن تأثرها باحداث البيئة والعصر . واذا فهي لا تغني في درس فنونه الشعرية ، وصياغته النظمية ، وميزاته الخاصة . وكلها موضوعات لا يفرغ منها الادباء لمدة طويلة . وليس لنا الآن الا التمني بان ينهض لدرسها من يختصون بما اختص به صاحب هذا الكتاب الذي نقدمه الى القراء ، فيسيرون على طريقه القويم ، وينتقدون مدائح شوقي ، وغنائياته ، وملاحمه ، وامثاله ، كما انتقد رواياته التمثيلية ؛ ويتوفقون ، ان والاهم الحظ ، الى ما توفق اليه من شمول الدرس ، ودقة البحث ، ووضوح الاسلوب ؛ حتى جعلنا ، وبين يديتا هذه الباكورة الشهية ، نتفاءل خيراً بما سيهدي الينا من ثمار ناضجة ، ان شاء الله .